



المبعث النبوي الشريف التحديات والتحوّلات

محاور الموضوع

أ: التحديات:

١- الحالة النفسية

٢- الحالة الفكرية

الهدف:

- تسليط الضوء على مجموعة من التحديات التي واجهت النبي ﷺ في دعوته وبيان التحوّلات الكبرى التي حصلت.

تصدير:

- قال رسول الله ﷺ: «يامعشر العرب ادعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإني رسول الله فأجيبوني تملكو بها العرب وتدين لكم بها العجم وتكونون ملوكاً»

٢- المفاهيم العقائدية

٤- المفاهيم القيمية

٥- الحالة الاجتماعية

ب: التحوّلات: ١- قريبة ٢- متوسطة ٣- بعيدة

مقدمة:

إن العمل التغييري عمل شاقّ ومعمّد لأنه يهدف إلى تبديل السلوكيات الحالية بسلوكيات أخرى والتبديل السلوكي مترتب على تغير الجوهر من قبيل التخلي عن عقائد مترسخة في النفوس إلى عقائد أخرى، وكذلك التخلي عن صفات نفسانية مقابلة «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» وهذا بطبيعة الحال يؤلّد مجموعة من التحديات الصعبة إلا أنه في صورة النجاح ستكون التحوّلات كبيرة جداً ولربما بلغت مقدارا لا تدركه العقول العادية.

وفي هذا السياق يأتي الحديث عن بعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ حيث كانت التحديات فوق العادة ولذا فاقت التحوّلات كل التطورات ولا بأس بتسليط الضوء على بعض التحديات.

التحديات:

١- الحالة النفسية:

الحاكم على سلوكهم

والمتحكم في تصرفاتهم الأهواء النفسية والصفات الخبيثة الباطنية من التكبر والكبرياء إلى غفلة الأفتدة بأفقال الرّين ويشير إلى هذه أمير المؤمنين ﷺ حيث يقول: «بعته والناس ضلال في حيرة، وحاطبون في فتنة قد استهوتهم الأهواء، واستذلّتهم الكبرياء»^(١) وقال أيضاً: «ابتعته والناس يضربون في غمرة ويموجون في حيرة، قد قادتهم أزمة الحين، واستغفلت على أفندتهم أقفال الرّين»^(٢)

٢- الحالة الفكرية:

المعروف عن المجتمع آنذاك أنه ما كان يعلم الكتابة ولا القراءة وكان الغالب عليه الجهالة، وبعبارة ثانية فهو مجتمع غارق في الضلالة المظلمة والجهالة الغالبة، ولم يدع أحد منهم نبوة ولا وحياً، وتدل عليه بعض كلمات أمير المؤمنين ﷺ حيث قال: «أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً

ولا يدعي نبوة ولا وحياً»^(٣) ويصف حالتهم فيقول: «أضاعت به البلاد بعد الضلالة المظلمة، والجهالة الغالبة»^(٤)

٣- المفاهيم العقائدية:

ليس للعرب حين بعثة النبي ﷺ منهج واضح، وكانوا على تشبّتهم بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره وقد درست لديهم أعلام الهداية وطمست مناهج الدين، وأطفئت منارات الرشد عندهم، وأشار إليها علي ﷺ بقوله: «أرسله وأعلام الهدى دارسة، ومناهج الدين طامسة»^(٥) وقال ﷺ: «بعته حين لا علم قائم، ولا منار ساطع، ولا منهج واضح»^(٦) وقال أيضاً ﷺ: «وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة بين مشبه لله بخلقه أو ملحد في اسمه أو مشير إلى غيره»^(٧)

(٣) - نهج البلاغة خطبة ١٠٤

(٤) - نهج البلاغة ١٠٥

(٥) - نهج البلاغة خطبة ١١

(٦) - نهج البلاغة ١٩٦

(٧) - نهج البلاغة خطبة ١

(١) - نهج البلاغة خطبة ٩٥

(٢) - نهج البلاغة خطبة ١٩١

٤- المفاهيم القيمية:

لا نظير للمجتمع العربي على مستوى فقدان المفاهيم القانونية والأخلاقية، ولم يستقم قانونهم عليه ولم يجدوا مصباحاً يستيروون بضوئه، وإلى هذا أشار علي عليه السلام بقوله: «أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم واعتزام من الفتن، وانتشار من الأمور، وتلذذ من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، على حين اصفار من ورقها، وإياس من ثمرها»^(١).

٥- الحالة الاجتماعية:

كان الواقع الاجتماعي مفتاً للناس يستحلون الحريم، وحاطبون في الفتنة، فكانوا على شر دين وفي شر دار، يسفكون دماءهم، ويقطعون أرحامهم، وإلى ذلك أشار علي عليه السلام بقوله: «ان الله تعالى بعث محمداً وانتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار، منيخون بين حجارة، خشن وحيات صم، تشربون الكدر وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم»^(٢) وفي مجال آخر وصف حالهم عليه السلام بقوله: «الناس ضلال في حيرة وحاطبون في فتنة»^(٣) وقال عليه السلام: «الناس يستحلون الحريم، ويستدلون الحكيم، يحيون على فترة، ويموتون كفر»^(٤) ما ذكرناه ما هو إلا جزء من الصورة للواقع الذي كان قائماً آنذاك، ولذا فالتحديات العظيمة التي تنتظر الحركة التبليغية للنبي الأعظم ﷺ فوق ما يوصف ويقال، والأدلة على ذلك كثيرة، منها ما هو على نحو الإجمال، ومنها ما هو على نحو

التفصيل، فمن النحو الأول: كثرة المعاجز المادية التي كان يبرزها للناس من حين إلى آخر، وبدلاً من أن يذعنوا للمعجزة وينقادوا للحق فما كان منهم إلا أن ازدادوا عناداً وطغياناً، كما حصل بينه وبين ركانة، وأبي الأشد الجمحي، والوليد بن المغيرة وغيرهم الكثير ممن أصموا آذانهم وأقفلوا قلوبهم، ثم خرجوا على الناس ليتهموا أشرف الخلق بأمر أربعة الجنون «والكهانة»، والسحر والافتراء، وهل هناك تحد أعظم من عدم قدرتهم عن تحمل سماع اسم محمد ﷺ أو ذكر محمد ﷺ وهذا يأتي من سياق التحديات التفصيلية، ومن الشواهد التاريخية ما روي أن النبي ﷺ أمر بلالا عند وقت صلاة الظهر (بعد فتح مكة) فصعد بلال الكعبة فقاتل عكرمة: أكره أن اسمع صوت أبي رباح ينهق على الكعبة، وحمد خالد بن أسيد الله على أن أبا عتاب توفي ولم ير ذلك، وقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً لو نطقت لظننت أن هذه الجدر ستخبر به محمداً ﷺ، فبعث إليهم النبي ﷺ فأتى بهم، وفي نص آخر أنه لما بلغ بلال (أشهد أن محمداً رسول الله) قالت جويرية بنت أبي جهل «قد لعمرى رفع لك ذكرك... والله لا نحب من قتل الأخية أبداً»^(٥)

ب: التحولات: يمكن تصنيفها إلى ثلاثة مراتب قريبة ومتوسطة وبعيدة:

أما الأولى: نريد فيها أن البعثة ذاتها شكلت أكبر حدث تشهده الجزيرة العربية فاشغلت القريب والبعيد وكانت مورد اهتمام جميع شرائح ومكونات المجتمع.

وأما المتوسطة: فملاحظ تشكيل نواة انصهرت وتفتتت في حمل الرسالة حتى أضحت الدعوة أمراً واقعاً، يُحسب لها كل حساب لا سيما بعد فتح مكة المكرمة، مضافاً إلى بناء جيل يتحلى بصفات نقبض ما كان عليه الواقع الموصوف المذكور سابقاً، وابلغ كلام عن التحولات ما جاء على لسان أمير المؤمنين عليه السلام حيث عبر عنها بقوله: «أضاعت به البلاد بعد الضلالة المظلمة والجهالة الغالبة والجفو الجافية»^(٦) وفي أخرى: «صدع بالحق ونصح للخلق»^(٧). وقال أيضاً: «ابتعته بالنور المضيء والبرهان الجلي والمنهاج البادي والكتاب الهادي»^(٨) حتى دخل الناس في الإسلام أفواجاً أفواجاً.

وأما البعيدة:

فان التحول على الصعيد العالمي وعلى مساحة انتشار البشرية حتى أضحت رسالة شاملة كاملة خالدة ما دامت السماوات والأرضين.

خاتمة:

من أهداف هذه البعثة الشريفة صناعة الإنسان وإصلاح المجتمع، فعلى الصعيد الأول فيمكن أنهما خرجت علي بن أبي طالب عليه السلام وحوارييه السبعة وهكذا في كل مرحلة زمانية حيث وجدت مجموعة كانت تشكل الضمانة لحفظ رسالة رسول الله ﷺ، وأما على الصعيد الثاني فيمكن أن دولة العدل الإلهي المنتظرة إنما هي الغاية المتولدة من رحم بعثة رسول الله ﷺ وهكذا فإن قيام الدولة الإسلامية المباركة في إيران بقيادة الولي الفقيه العادل ما هو إلا من آثار البعثة المباركة لخاتم الأنبياء ﷺ .

والحمد لله رب العالمين.

